

روسيا في المنطقة العربية: طموح استراتيجي ومصالح جيوسياسية

شريف شعبان مبروك

باحث في الشؤون السياسية - مصر

لا يمكن فصل الرؤية الروسية لسوريا عن رؤيتها الأوسع للمنطقة العربية وللشرق الأوسط ولدورها العالمي، والطموح الروسي لإعادة تعريف القوة الروسية ولعبها دور القطب المنافس أو الموازن للولايات المتحدة، فالساسة الروس ينظرون إلى الشرق الأوسط من منظورٍ استراتيجي لكن هذه النظرة لم تأخذ طريقها للظهور بشكل واضح عقب انهيار الاتحاد السوفيتي نتيجة حالة الفوضى الداخلية وفي دول الجوار الروسي، وبعد ترسيخ القبضة على الدولة والمجتمع في روسيا، ومن ثم التدخل الواضح في دول الجوار الروسي، وصولاً لترسيخ استراتيجية التوسع لتصل إلى الشرق الأوسط.

وقد بدأت مظاهر التدخل الروسي في المنطقة من خلال دعم البرنامج النووي الإيراني، وتبني مقاربة تجعل من إيران حليفاً لروسيا في المنطقة لما تتمتع به من موقع جيوسياسي، فهي تطل على القوقاز وعلى الخليج العربي وعلى آسيا الوسطى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إيران تشكل بالنسبة للمنطقة فزاعة يمكن لروسيا من خلالها التأثير على دول المنطقة وعلى الغرب على حدٍ سواء بغية تحصيل مكاسب تكتيكية مرحلية أو استراتيجية تعيد بلورة دورٍ إمبراطوري روسي.

استند هذا الدور الإمبراطوري الروسي على تعزيز مظاهر تحدي العالم في المناطق الرخوة ومناطق الأزمات (جورجيا - أوكرانيا - القرم - سوريا) مدفوعة بعقلية كولنيالية إمبراطورية تستند إلى مرتكزات أيديولوجية دينية، وقد ظهر التأثير الديني (الأرثوذكسي) في الأدوار التي لعبتها الكنيسة الروسية في أزمات الجوار الروسي بصورٍ متدرجة (البوسنة والهرسك - جورجيا - سوريا)، ولا يمكن للمتابع للأحداث الروسية نفي تزايد

تأثير الكنيسة في الحياة السياسية الداخلية في روسيا وتزايد استخدام الساسة الروس للخطاب الديني على المستوى الداخلي وفي بعض الأحيان على مستوى السياسة الخارجية.⁽¹⁾

ومع أن روسيا تنظر إلى المنطقة العربية والشرق الأوسط ككل عبر المدخل التاريخي الثيوقراطي إلا أنها في الوقت نفسه تتجاهل حقائق تاريخ المنطقة، فمرارة سقوط (القسطنطينية) إسطنبول وما تلاها من حروب روسية - عثمانية بعد تنصيب روسيا لنفسها أواخر القرن السادس عشر وريثة الكنيسة الأرثوذكسية الأمر الذي يبدو أنه يتكرر في خطاب الدولة الروسية ومسؤوليها الرسميين والدينيين.⁽²⁾

أهداف التوسع العسكري الروسي في سوريا

يأتي توسيع الوجود العسكري الروسي في سوريا في جزء منه، رداً على تعيين تنظيم داعش "أبا محمد القدري" واليا على القوقاز، وهو ما يشكل تهديدا مباشرا للمصالح القومية الروسية في آسيا الوسطى والقوقاز، في ظل تنامي المحفزات الداخلية لهذا التمدد، حيث تشغل منطقة شمال القوقاز التي تضم سبعة كيانات فيدرالية خاضعة للسيادة الروسية (الشيشان، داغستان، أنجوشيا، قبردينو- بلقاريا، أوسيتيا الشمالية، قرانتشاي . تشيركيسيا، ستافروبل كراي)، أهمية قصوى في التفكير الاستراتيجي الروسي، باحتياطاتها الطاقية المهمة، وبموقعها الجغرافي المتميز بين البحر الأسود غربا وبحر قزوين شرقا، مما يخول لها التحكم في طرق المواصلات والتجارة بين أوروبا وآسيا.⁽³⁾

(1) رائد جبر، لماذا «تُكرَّر» روسيا في سوريا السيناريو الأوكراني، صحيفة الحياة اللندنية، 14 سبتمبر 2015.

(2) إلياس حرفوش، موسكو ... حيث فشلت طهران، صحيفة الحياة اللندنية، 8 سبتمبر 2015.

(3) سامي السلامي، التدخل الروسي في سوريا وجهاديو القوقاز .. أبعاد متداخلة، موقع مجلة السياسة الدولية، 15 أكتوبر 2015:

<http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/2/104/6545/%D8%AA%D8%AD%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%AA/%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A-%D9%81>

كما يلعب المحدد الداخلي دوراً رئيسياً في صياغة السياسة الخارجية الروسية، فسعي موسكو لحماية مصالحها القومية، التي يتربع الأمن على سلم أولوياتها، أسهم في توسيع الوجود العسكري الروسي في سوريا، والقيام بضربات جوية ضد تنظيم "داعش"، حيث يشكل ارتداد العناصر القوقازية المقاتلة بجانبه أو بالتنسيق معه نحو شمال القوقاز خطراً كبيراً على العمق الاستراتيجي الروسي، يأتي في الدرجة الثانية ضمن الأخطار الخارجية بعد توسع الناتو شرقاً.⁽⁴⁾

كما أن منطقة شمال القوقاز، بإطلالها على البحر الأسود غرباً، تمثل المنفذ الرئيسي والمباشر لموسكو عبر مضيقي البوسفور والدردنيل إلى البحر المتوسط، ومنه إلى ميناء طرطوس (سوريا)، نقطة ارتكازها في الشرق الأوسط، علاوة على الخسائر الفادحة التي ستلقاها موسكو في حال قيام الجهاديين بعمليات تخريبية تجاه خط أنابيب "السييل التركي" المنطلق من القوقاز الروسي عبر البحر الأسود.

تعد منطقة الشرق الأوسط منطقة لتمام النفوذ والمصالح الأمريكية والروسية، حيث تهدف استراتيجية واشنطن في المنطقة إلى حماية أمن إسرائيل، بحسبانها نقطة ارتكاز للنفوذ الأمريكي، والسيطرة على نفط وغاز الخليج للتحكم في مصادر الطاقة العالمية، وقلب أنظمة الحكم المناوئة لها عن طريق دعم تيار الإسلام السياسي، في حين تهدف موسكو إلى الحفاظ على وجودها العسكري بالمنطقة (سوريا)، ومزاومة النفوذ الأمريكي، وعقد شراكات اقتصادية مع دولها، بما فيها إبرام عقود لتوريد أسلحة.⁽⁵⁾

%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D8%AC%D9%87
%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D9%88-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%88%D9%82%
D8%A7%D8%B2-%D8%A3%D8%A8%D8%B9%D8%A7%D8%AF-%D9%85%D8%AA%
D8%AF%D8%A7%D8%AE%D9%84%D8%A9.aspx

(4) يزيد صايغ، بوتين ودبلوماسية "الروليت" في سورية، صحيفة الحياة اللندنية، 16 سبتمبر 2015.

(5) فيودر لوكيانوف، التدخل الروسي في سورية ضد «داعش» ومع «إسرائيل علوية»، صحيفة الحياة اللندنية، 16 سبتمبر 2015.

وتعد الحالة السورية نقطة خلاف جوهرية بين موسكو وواشنطن حول طرق تدبيرها ومخرجاتها السياسية، رغم الاتفاق الأخير بين وزارتي الدفاع الروسية والأمريكية لتنسيق التحركات العسكرية في سوريا. إذ تهدف موسكو بضرباتها الجوية إلى استعادة دورها كقوة عظمى قادرة على المبادرة، وضبط الخريطة الجيوسياسية في المنطقة، مع تقديم نفسها كبديل للولايات المتحدة التي فشلت فشلا ذريعا في تدبير أزمات الشرق الأوسط، وملء الفراغ الأمني الذي خلفته واشنطن وراءها (احتلال العراق 2003)، والذي شكل مجالا خصبا لتنامي وتمدد التيارات الجهادية.⁽⁶⁾

لقد وضعت روسيا هدفين أساسيين بشكل مبدئي (أولي) لتدخلها العسكري المباشر في سوريا لدعم القوات السورية التابعة للنظام الشرعي:⁽⁷⁾

الأول، منع التحالف الأمريكي من القيام بأي خطوات من شأنها تحديد "مناطق محررة" وفرض حظر جوي عليها، ومن ثم منع المعارضة السورية المسلحة من التكتل في تلك المناطق وشن هجمات برية تحت غطاء جوي لقوات التحالف، وهذا الأمر يجري التحضير له منذ أشهر طويلة، سواء عن طريق العمل المباشر بواسطة تركيا والسعودية

(6) سلامة كيلة، روسيا الإمبريالية من أوكرانيا إلى سوريا، موقع الجزيرة نت، 17 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/15/%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A3%D9%88%D9%83%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A7-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7>

(7) هشام جابر، روسيا في سوريا.. الأهداف والقدرات والنتائج، موقع الجزيرة نت، 10 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/8/%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%87%D8%AF%D8%A7%D9%81-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%AA%D8%A7%D8%A6%D8%AC>

وقطر، أو بشكل غير مباشر من جانب فرنسا التي أعلن رئيسها عن ضرورة تقديم الدعم لما أسماه بالمناطق المحررة.⁽⁸⁾

والثاني، رغبة الكرملين في دعم النظام "الشرعي" في مكافحة الإرهاب، والدفع في الوقت نفسه إلى لقاءات أو اتفاقات ولو أولية بين مختلف القوى السورية، بما فيها النظام السياسي لتسوية سياسية، وهو الأمر الذي يسمح لروسيا بالحفاظ على مصالحها، على عكس ما حدث لها في العراق وليبيا.

الهدف الأول تم الإعلان عنه بعد ستة أيام من بدء القصف الروسي في سوريا على لسان نائب وزير الخارجية الروسي، مبعوث الرئيس الروسي إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، ميخائيل بوغدانوف، حيث أكد أن بلاده ترفض إقامة منطقة حظر جوي في سوريا، بناء على اقتراح تركيا، معللاً ذلك بضرورة احترام سيادة الدول.⁽⁹⁾

أما الهدف الثاني، فهو قيد العمل، إذ قامت روسيا بالإعلان عن تحالف أمني لوجستي لتبادل المعلومات الأمنية بينها وبين إيران والعراق وسوريا، ومواصلة العمل إلى جانب القوات السورية، والقوات الكردية "البيشمركة"، حيث اعترفت موسكو بأنها قامت بتسليح هذه القوات، وكذلك إلى جانب متطوعين إيرانيين من حرس الثورة الإسلامية الذين يقاتلون منذ فترة في سوريا إلى جانب عناصر من تنظيم "حزب الله" اللبناني.⁽¹⁰⁾

التدخل الروسي والتسوية في سوريا

يقول أنصار التدخل العسكري الروسي من السوريين إن هذا التدخل يهدف لضرب المنظمات الإرهابية وإضعافها والخلص منها، وذلك استباقاً وخشية من أن تقفز هذه

(8) عبد الله بن بجاد العتيبي، اجتماع فيينا ومستقبل سوريا، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، 25 أكتوبر 2015.

(9) حسين عبدالعزيز، الدور التركي بعد تدخل روسيا في سورية، جريدة الحياة اللندنية، 14 أكتوبر 2015.

(10) وليد شقير، منصة بوتين السورية، صحيفة الحياة اللندنية، 9 سبتمبر 2015.

المنظمات إلى القوقاز وتصبح مشكلة روسية. أما الموالون للسلطة فقد رحّبوا بهذا التدخل وتظاهروا تأييداً له، وزارت وفود منهم السفارة الروسية لهذا الغرض (ما زال في عالما من يرحّب بالتدخل العسكري بشؤون بلاده). وهم يؤكدون وجود مهمات أخرى للتدخل إضافة لمحاربة الإرهاب، هي مساعدة جيش السلطة على محاربة المعارضة المسلحة (جميعها بنظرهم منظمات إرهابية)، حتى يكون هذا التدخل انعطافاً نوعياً في الصراع القائم في سوريا. (11)

من طرف آخر، يرى محلّون مقرّبون من السياسة الروسية، كما سرّبت الأوساط الروسية أن هذا التدخل سيكون محدود المدة وله أهداف شاملة غير ما ذكرت، أو غير ما يطفو على سطح الإعلام، ويؤكدون أن هدف السياسة الروسية إيصال السلطة السورية إلى قبول محادثات التسوية وإقناعها بالحل السياسي الذي ترفضه حتى الآن، وعدم جدوى الحل العسكري، ويكون ذلك بأن يقوم هذا التدخل بتقليل أظافر إيران وإقناع النظام بالتوقف عن إلقاء البراميل المتفجرة والتخلي عن الميليشيات غير السورية وإعادتها إلى بلادها، وحل الميليشيات المحلية (قوات الدفاع الوطني) وضمّ من يرغب من أفرادها إلى الجيش، وبالمحصلة إشعار النظام السوري بأن الوجود العسكري الروسي جدير بحمايته أكثر من هؤلاء جميعاً، وأن مطالبه أقل من مطالبهم، وهو يبعد الصراع الطائفي ويخّص السلطة السورية من الهيمنة الإيرانية المطلقة. وعلى ذلك، فإن هذا التدخل يعقلن الجميع ويجعل مختلف الظروف المحيطة بالصراع هادئة وطبيعية وبعيدة عن الغرائز والقرارات الانفعالية والثأرية. (12)

إلا أن ما يجري في الواقع يشير إلى احتمالات عديدة قد لا تساعد على تحقيق هذه الأهداف، فيما إذا كانت السياسة الروسية تعمل من أجل تحقيقها فعلاً. فالتدخل العسكري الروسي قصف مدنيين في أكثر من مكان سواء كان ذلك قصداً أو بالخطأ. لكن قسماً

(11) التدخل الروسي في سوريا.. بين الـ "فخ" وفرض النفوذ، صحيفة الوفد المصرية، 30 سبتمبر 2015.

(12) التدخل الروسي في سوريا وأبعاده السياسية، موقع يورو نيوز، 24 سبتمبر 2015:

<http://arabic.euronews.com/2015/09/23/assad-is-moscow-s-pawn-in-regional-power-stakes/>

من الشعب السوري يعتبر الأمر قصفاً مقصوداً، وبالتالي يتراكم في وعيه عداً للروس ورفضاً لمقترحات روسية للحل. وقد لاحظ السوريون تلاشي الحديث عن مؤتمرات «موسكو 1» و «موسكو 2» و «الآستانة 1» و «الآستانة 2» وجميعها من اقتراحات السياسة الروسية، إذ بدت هذه السياسة طرفاً مشاركاً في الصراع لا تقل مشاركتها عن مشاركة إيران.⁽¹³⁾

من مصالح روسيا تثبيت الوجود العسكري البحري في طرطوس والقاعدة العسكرية الجوية في مطار حميميم، باعتبارهما القاعدتين الأساسيتين لروسيا في شرق البحر المتوسط، والحفاظ عليهما مهمة استراتيجية ومسؤولية كبيرة. ولعل هذا يتحقق من خلال التدخل العسكري. كما من مصالح روسيا منع مرور الغاز الإيراني والقطري من سوريا إلى أوروبا لمنافسة الغاز الروسي فيها، وهذا أيضاً هدف استراتيجي مهم، إضافة إلى أن التضييق على إيران هو تضييق على الخلافات الطائفية، بما في ذلك ما تواجد منها في القوقاز، وبالتالي إدخالها في اللعبة السياسية بالمنطقة وأيضاً في روسيا.⁽¹⁴⁾

من جهة أخرى، ترى السلطة السورية كما ترى السياسة الروسية أن هذا التدخل العسكري الروسي سيكون طرفاً مساعداً على توازن القوى قبيل أي محادثات للتسوية، بل تطمح بأن تتبنى السياسة الروسية موقف هذه السلطة كاملاً من الحل، خاصة أن هذه

(13) سلامة كيلة، روسيا الإمبريالية من أوكرانيا إلى سوريا، موقع الجزيرة نت، 17 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/15/%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A3%D9%88%D9%83%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A7-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7>

(14) إبراهيم فريحات، التدخل الروسي في سوريا.. هل يقلق أميركا، موقع الجزيرة نت، 8 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/6/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%87%D9%84-%D9%8A%D9%82%D9%84%D9%82-%D8%A3%D9%85%D9%8A%D8%B1%D9%83%D8%A7>

السياسة دأبت خلال سنوات أربع على تأكيد ثوابت قريبة من رأي السلطة، وحثت الموقف السوري في مجلس الأمن. وعلى ذلك، فسيكون هذا التدخل جزءاً من توازن القوى الذي يفرض نفسه على التسوية المحتملة، ولن يستطيع لا الأميركيون ولا الأوروبيون ولا دول المنطقة تجاهل هذا التواجد ودوره في الحل. ومن المؤكد أن هذا الدور يفوق مرات عديدة الدور الذي كان يمكن أن يكون قبل التدخل أو من دونه. ومن الطرف الغربي الأمريكي والأوروبي، سيحسب الجميع حساباً جدياً للوجود الروسي الذي جعل السياسة الروسية هي الأقوى واقعياً في سوريا.⁽¹⁵⁾

روسيا وإيران وأمريكا وأمن المنطقة العربية

أمام لجنة استماع حول الشؤون العسكرية والسياسية في مجلس الشيوخ الأمريكي في أكتوبر 2015، أجمع الشهود من الخبراء على أن روسيا بدخولها المعركة في سوريا أصبحت تمثل خطراً متزايداً على الولايات المتحدة ونفوذها ومصالحها وأمن منطقة الشرق الأوسط، ووصف ما يحدث بـ "الخطر"، وأن روسيا لم تفعلها وتقاتل خارج مناطق نفوذها حتى إبان الحرب الباردة، والحقيقة أن الخسائر الأميركية أكبر من ذلك، فالسياسة الأميركية الحالية دفعت حتى حلفاء الولايات المتحدة مثل السعودية ومصر والإمارات والكويت إلى توقيع عقود عسكرية مع موسكو، وهو تدنٍ لا مثيل له في العلاقات. والسبب أن هذه الدول اضطرت لمهادنة موسكو بعد أن أظهرت واشنطن عدم اهتمامها بها، وفي بعض الحالات دخلت في تحالفات معادية لدول الخليج، مثل اتفاق البرنامج النووي مع إيران وملحقاته، كما كشفت جلسة الاستماع أن نشاط روسيا العسكري تجرأ على ارتكاب مئات الاختراقات للأجواء الأوروبية في العام الماضي، وهو الآن يخرق أجواء تركيا، الدولة العضو في حلف الناتو.⁽¹⁶⁾

(15) غازي دحمان، دوافع موسكو للتدخل في سورية، صحيفة الحياة اللندنية، 22 سبتمبر 2015.

(16) رائد جبر، لماذا «تُكرّر» روسيا في سوريا السيناريو الأوكراني، صحيفة الحياة اللندنية، 14 سبتمبر 2015.

وقد لا يكون الدخول الروسي العسكري إلى منطقة الشرق الأوسط، بعد احتلاله القرم، نهاية السيناريو المقلق للغرب، ربما هو بدايته، ومن الواضح أن شهية موسكو للانتشار والتمدد وفرض موقفها وتوسيع علاقاتها هو على حساب الولايات المتحدة التي أظهرت خلال السنوات الست الماضية سياسة انكفاء متعمدة، خاصة في العراق والخليج ومصر، وصارت سلبية أكثر عندما أصرت واشنطن في البداية على مواجهة النظام الجديد في مصر بعد الثورة المضادة لحكم الإخوان في مصر، ورفضت كل المناشدات العربية من حلفائها للتعاون ضد المذابح التي ارتكبتها نظام الأسد في سوريا، وزاد الأمر غضباً عندما لم تفعل واشنطن شيئاً حيال إرسال إيران وحزب الله آلاف المقاتلين في سوريا. والآن يرى حلفاؤها العرب كيف أن الولايات المتحدة صارت ترجو من الحكومة العراقية عدم تخفيف الحراسات الأمنية في المنطقة الخضراء في العاصمة بغداد مما يوحي بحالة عجز أميركية غير مسبوقة منذ الستينات.⁽¹⁷⁾

الأميركيون هم أقوى من الروس عسكرياً، لكن سياسة الإدارة الأميركية الحالية قامت على تجنب خوض الحروب والابتعاد عن الصراعات الإقليمية، ورفضت كل الدعوات للمشاركة في نزاعات سوريا وليبيا واليمن وكذلك جنوب الصحراء في أفريقيا بعد اختطاف فرع تنظيم القاعدة فتيات المدارس، وتأخرت كثيراً حتى دخلت حرب العراق ضد تنظيم داعش.

بتوسع الروس فجأة علت الأصوات الأميركية التي تستنكر هذه السياسة الانكفائية وتطالب بإعادة النظر في استراتيجية المواجهة مع الكرملين. حيث إن الخطأ الأكبر لواشنطن ليس في سوريا بل في إيران. فقد قيدت فكرة التوصل إلى اتفاق نووي الولايات المتحدة وليس إيران، حيث إن الأميركيين تحاشوا مواجهة الإيرانيين الذين تجرأوا على

(17) إيران جزء من المشكلة وروسيا تنكي الصراع الطائفي بالشرق الأوسط، صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، 23 أكتوبر 2015.

التمدد عسكرياً علانية في العراق وسوريا، وكان توسعهم يخدم الروس كما نرى اليوم وعلى حساب المصالح الأميركية.⁽¹⁸⁾

لن تستطيع الولايات المتحدة مواجهة الروس عسكرياً لأن مبررات المواجهة القانونية مفقودة، حيث لا يوجد قرار من مجلس الأمن، ولم تؤسس أميركا جماعة تدافع عنها وعن شرعيتها، كما أن الحكومة العراقية لم تعد تبالي كثيراً باحتجاجات واشنطن، ومن المؤكد أنها ستفرض منحها شرعية لجهة الروس على أراضيها.

لهذا فإن مشكلة واشنطن هي في الاتفاق الرديء الذي وقعته مع طهران وصار مثل حصان طروادة للروس، حيث يلعب الروس والإيرانيون في فريق واحد في كل من العراق وسوريا، ويتعاونون في مناطق مختلفة بما فيها أفغانستان ضد المصالح الأميركية وضد حلفائهم التقليديين.⁽¹⁹⁾

المصالح الجيوسياسية لروسيا

حسابات النظام السوري معقدة ومتعددة المستويات على شاكلة أزمتة، فهو يعاني من تراجع عسكري خطير، بعد أن فقد 80% من مساحة البلاد، بمعدل 20% سنوياً، ويواصل أفراد المعارضة المسلحة تقدمهم مع ازدياد خبرتهم وأعدادهم، بينما يواجه جيشه تناقصاً متسارعاً في الكم والنوع، وتتهاوى معنويات حاضنته الشعبية التي بدأت بالتأمل وإظهار الاستياء، كما حدث مؤخراً في اللاذقية والسويداء. من ناحية أخرى، يبدو أن

(18) أهداف بعيدة للتدخل العسكري الروسي في سوريا، صحيفة القدس العربي، 10 سبتمبر 2015.

(19) ماجد بن عبد العزيز التركي، أميركا وروسيا.. الاتفاق والاختلاف في سوريا، موقع الجزيرة نت، 9 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/8/%D8%A3%D9%85%D9%8A%D8%B1%D9%83%D8%A7-%D9%88%D8%B1%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA%D9%81%D8%A7%D9%82-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%81-%D9%81%D9%8A%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7>

عائلة الأسد، والنخبة العلوية المقربة منها، إضافة إلى القطاع السنّي الذي لا يزال يؤيده، يخشى من الهيمنة الإيرانية المطلقة، وخاصة من سعيها الحثيث لاصطناع كيان مذهبي مرتبط بها على شاكلة حزب الله اللبناني، وتخشى عائلة الأسد من مقايضة إيرانية تطيح بها بمقابل الحصول على حق رعاية وحماية العلويين والشيعية عبر ذلك الكيان والمليشيات التي أنشأتها، وتعد المظلة العسكرية الروسية في هذه الحالة ضماناً لها من السقوط أمام الثوار من جهة، وخياراً بديلاً من الوقوع الكلي تحت نفوذ طهران وسياساتها البراغماتية المذهبية من جهة أخرى.⁽²⁰⁾

وفي المستوى الإقليمي، ربما وجد بشار الأسد، ومعه روسيا، أن ارتباطه بإيران وحلفها الشيعي هو العقبة الكأداء التي تجعل من عملية اختراق سياسي للصف المعادي له عملية مستحيلة، وأن تولي أمره من طرف روسيا، بما لها من ثقل دولي ونفوذ على بعض العواصم العربية، مع توارى إيران عن المشهد قليلاً، سيجعله مقبولاً، أو على الأقل سيفتح إمكانية الحوار معه عبر القناة الروسية، على أمل أن تغيّر تلك القوى الراضية له بشكل مطلق بعض مواقفها منه، وربما تقبله مجدداً.

ولابد أن الحكومة الروسية قد تفاهمت مع إيران قبل أن تتخذ قرارها الذي سبقته زيارة قائد فيلق القدس التابع للحرس الثوري قاسم سليمانى إلى موسكو، وربما تشاطرها الاعتقاد بأن لا نجاة لنظام الأسد ما دام محسوباً على حلفها المذهبي، ولإتقاده لابد أن تتوارى قليلاً مفسحة المجال للروس لتصدر المشهد، لكنها بالتأكيد غير غافلة عن كون النقاط التي سيسجلها الروس هناك هي على حسابها، ولابد أن الطرفين اتفقا على نوع من التقاسم الوظيفي على الساحة السورية، بحيث تواصل إيران تنمية قطاع الميليشيات المرتبط بها، ولكن بعيداً عن الأضواء، بينما تتولى روسيا ترميم الجيش النظامي وإعادة تأهيله. لكن منطوق الصراع على النفوذ في الحيز السوري الضيق، سيقود حتماً إلى تدافع

(20) جيفري وايت، روسيا في سوريا: التداعيات العسكرية، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 15 سبتمبر 2015:

<http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/russia-in-syria-part-2-military-implications>

أو تصادم بين القوتين، بيد أن طهران ستصبر ولا شك حتى ينجلي غبار المعركة، فإن انتصر الروس تقوّت بهم على الإقليم كله، وإن هُزموا ومعهم الأسد، فإن خيارها البديل المتمثل بالمليشيا الطائفية، سيكون جاهزاً.

وبالنسبة إلى إسرائيل، والتي تعدّ الراح الصامت من الزلزال السياسي الذي أصاب المنطقة، سيستمر موسم جنيها الأرباح بلا عناء ولن تسمح بما لديها من نفوذ في الكرملين والعالم، بمرور المخطط الروسي دون ثمن وقد تأكّدت وبشكل معلن من أن نظام الأسد وإيران وحزب الله سيذعنون لشروطها منذ الآن فصاعداً عبر التواجد الروسي، الذي سيشكّل أيضاً جداراً فاصلاً بينها وبين الأخطار المحتملة من إسلامي سوريا إلى مدى غير محدد.⁽²¹⁾

ويُعدّ موقف تركيا هو الأسوأ، فهي عرضة لمواجهة بين روسيا والناثو على حدودها الجنوبية، ويتهددها خطر تطاير شرر الصراع مع المتشددين، علاوة على صراعها الذي عاود التفجر مع الأكراد، في ظلّ عدم استقرار سياسي ناجم عن نتائج الانتخابات الأخيرة، وقد تجد نفسها مضطرة لتقديم تنازلات كالتّي قدمتها مؤخراً حين أتاحت قواعد الجوية لطائرات التحالف الدولي التي تقصف داعش في سوريا والعراق.⁽²²⁾

وفي المستوى الدولي، لم تتدخل الولايات المتحدة الأميركية عسكرياً في الصراع السوري لصالح الثوار خشية استيلاء الإسلاميين على السلطة وارتكاب مجزرة انتقامية بحق العلويين، وفضّلت الضغط المتواصل لإجراء تفاوض يُفضي لانتقال سياسي يستثني

(21) جيفري وايت، روسيا في سوريا: التدايعات العسكرية، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 15 سبتمبر 2015:

<http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/russia-in-syria-part-2-military-implications>

(22) خورشيد دلي، تركيا والتدخل الروسي في سوريا، موقع الجزيرة نت، 6 أكتوبر 2015:
<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/5/%D8%AA%D8%B1%D9%83%D9%8A%D8%A7%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7>

بشار الأسد، وتبقى مؤسسة الجيش كضامن لحماية العلويين وبقية الأقليات، ويبدو أن ثمة تفاهماً كان قائماً مع الروس، يقضي بعدم دعم هؤلاء للنظام السوري بأية شحنات متطورة من الأسلحة، بمقابل التزام الولايات المتحدة بمنع وصول أسلحة نوعية للثوار، مثل مضادات الطائرات التي دافعت واشنطن بحزم ضد توريدها للثوار، وبدورها لم تسلّم روسيا للأسد أسلحة أو ذخائر غير التي كانت ملتزمة بتقديمها قبل الثورة.⁽²³⁾

ويبدو أن الروس يحاولون البناء على الرغبة الأميركية ببقاء النظام، مع تعديل جوهرى هو بقاء بشار الأسد في السلطة لمدةٍ ما، ويُفهم من تصريحات وزير الخارجية الأميركية كيري الأخيرة أن بلاده قد تقبل ذلك، لكنها لم تغير موقفها الرسمي المعلن منذ بداية الثورة السورية وهو أن الأسد ليس جزءاً من مستقبل سوريا. وهو ما أكدته مرة أخرى الرئيس باراك أوباما في خطابه في الذكرى الـ70 للأمم المتحدة، ووصف بشار الأسد بالطاغية و"بأنه الجاني الرئيسي في الحرب السورية التي قُتل فيها على مدار السنوات الأربع مئتا ألف شخص على الأقل إضافة لملايين المشردين".⁽²⁴⁾

أيضاً يبني الروس على إشارات عربية إلى أن مردّ عدائهم للنظام والإصرار على إسقاطه هو ارتماؤه المطلق في الحضن الإيراني، وهو تحالف لا يمكن للأسد أن يتخلّى عنه في الظرف الراهن ما لم يتوفر بديل قوي وملتزم بحمايته، وهو الدور الذي يتطلع

(23) فراس أبو هلال، التدخل الروسي بسوريا واستراتيجية أوباما الأوسطية، موقع الجزيرة نت، 4 أكتوبر 2015:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2015/10/4/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A-%D8%A8%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D9%8A%D8%AC%D9%8A%D8%A9-%D8%A3%D9%88%D8%A8%D8%A7%D9%85%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%88%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D8%A9>

(24) جيف ميسون ودينيس ديومكين، أوباما ويوتن على طرفي نقيض في الأمم المتحدة بشأن التعاون مع الأسد، رويترز، 28 سبتمبر 2015:

<http://ara.reuters.com/article/topNews/idARAKCN0RS2I520150928>

الروس للعبه، وإحداث تغيير في المشهد الجيوسياسي للشرق الأوسط، يجعلها المقرر الأساسي فيه.⁽²⁵⁾

من حيث المبدأ، ليس لدى البيت الأبيض ما يقلقه من دخول الروس وغوصهم في المستنقع السوري وقضايا العويصة، وربما سيكون تدخلهم المباشر مناسبة لتحميلهم التبعات السياسية والعسكرية والأخلاقية لتدهور الوضع هناك، وسيُفَت الانخراط الروسي أنظار الإسلاميين، ويستحوذ على نصيب من اهتمامهم ونشاطهم الدولي الذي يتركز اليوم على استهداف الولايات المتحدة وأوروبا، وفي الوقت عينه سيراقب البيت الأبيض انتهاكات متوقعة للروس في حربهم، واستثمارها في الضغط السياسي في كافة المسائل الخلافية بينهما، عبر لعبة تبادل أدوار في مجلس الأمن، لا تبذل الولايات المتحدة خلالها مجهودًا أكثر من رفع بطاقة الفيتو الحمراء، كما فعلت موسكو طوال سنوات الثورة السورية الخمس، وترك الدب الروسي يعاني مقيّدًا في المستنقع شرق الأوسط حتى تخور قواه.

وعريباً، ستتحمل الدول العربية الداعمة للثورة السورية كالسعودية وقطر، عبئاً كبيراً في هذه المرحلة، فالتصريحات العدائية الروسية تعبّر عن نوايا مضمرة لفرض إرادتها في الإقليم بالقوة، ولا تشجّع على الاعتقاد بوجود تفاهم مسبق أو محتمل مع تلك الدول، التي لا يمكنها أن تخضع للخطة الروسية، وقد تذهب الأمور إلى تصعيد يبلغ حافة الهاوية، أو إلى مواجهة دامية بالوكالة، عبر دعم تلك الأطراف لعشرات الكيانات المسلحة السورية، أو غضّ النظر عن دعمها، لإلحاق ما لا يحصى من الطعنات بالقوات الروسية، واستنزافها حتى الوهن. وعلى عكس ما قد يتوقعه بوتين من اضطرار تلك الدول لتحسين علاقاتها معه، فإن تحركه الحالي سيدفع دول الخليج تحديداً إلى إنعاش تحالفها التاريخي مع الولايات المتحدة باعتبارها الحليف الأكثر قوة وموثوقية.

(25) جيفري وايت، روسيا في سوريا: التداخيات العسكرية، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 15 سبتمبر 2015:

<http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/russia-in-syria-part-2-military-implications>

مستقبل التدخل الروسي في سوريا

إن الحديث عن إمكانية نجاح الضربات الجوية الروسية في القضاء على "داعش" مرتبط بنوعية تلك الضربات، وبطبيعة التنسيق الحاصل بين الأطراف الدولية التي تحارب التنظيم. فسلح الجو الروسي سيعتمد "الضربات الانتقائية" تجاه المناطق التي تسيطر عليها كتائب وتنظيمات، أغلبية مقاتليها من آسيا الوسطى والقوقاز، ولن يكون لتلك الضربات تأثير كبير في تنظيم "داعش" الذي يتجاوز عدد مقاتليه 20 ألفا كحد أدنى، إن وضعنا في الحسبان فشل موسكو لأكثر من 20 عاما في القضاء على الحركات الجهادية في شمال القوقاز الأقل عددا وعدة من "داعش".⁽²⁶⁾

كما أن أي تنسيق روسي-أمريكي لن يصل لمستوى الشراكة الاستراتيجية التي تفرضها المتغيرات الإقليمية والدولية للقضاء على التنظيم، وإنما سينحصر في تعاون تكتيكي بغية الحفاظ على الحد الأدنى من مصالح الطرفين، في ظل سعي واشنطن إلى تغليب كفة التنظيمات المسلحة المعارضة لفرض التحي على الرئيس السوري بشار الأسد، دون أن يصل ذلك إلى بسط "داعش" نفوذها بدرجة تهدد المصالح الأمريكية في المنطقة، وهو ما ستعمل عليه ضربات التحالف تحت قيادة واشنطن.⁽²⁷⁾

وستصبح المعادلة قابلة للتغير، حال نجاح سلاح الجو الروسي في الحد من تمدد "داعش"، وتقليص نفوذه، وخلق توازن جديد في القوى يميل لمصلحة النظام السوري، مما سيفرض حينئذ على واشنطن خفض سقف شروطها لإيجاد حل سياسي متفق عليه، بما فيه القبول بمرحلة انتقالية بوجود الأسد، وهو ما يلوح في الأفق، بعد تعليق وزارة الدفاع الأمريكية تدريب وتجهيز المعارضة السورية المعتدلة بشكل مؤقت.⁽²⁸⁾

(26) الحرب الروسية في سوريا: الأسباب والمآلات، موقع مركز الجزيرة للدراسات، 12 أكتوبر 2015: <http://studies.aljazeera.net/positionestimate/2015/10/2015101291721373790.htm>

(27) شفيق ناظم الغبرا، التدخل الروسي يزيد اشتعال الحرب السورية، جريدة الحياة اللندنية، 8 أكتوبر 2015.

(28) وليد أبي مرشد، سوريا.. ساحة اختبار معادلة القوى، صحيفة الشرق الأوسط، 22 أكتوبر 2015.

إن خطورة الحالة السورية تتجاوز مرحلة الحل السياسي، فالسياسات الأمريكية اللاعقلانية دفعت بالمنطقة إلى دوامة صراع سيمتد لسنوات، في ظل تنامي تنظيم "داعش"، واتساع نفوذه، وتسارع مباحثته، وتمرس مقاتليه بفعل الخبرة التي اكتسبها في معارك القتال بدعم من ضباط سابقين في الجيش العراقي، ومقاتلين أشداء من القوقاز حاربوا الجيش الروسي، منذ الحرب الشيشانية الأولى.

وأخيراً، فإن دخول روسيا كقوة محاربة في سوريا سيؤلب العالم العربي والإسلامي، ويعيد ذكرى أفغانستان. وسيدفع تدخلها بالمزيد من الآلاف من الشباب للانخراط في تنظيمات متطرفة إرهابية دفاعاً عن إخوانهم السوريين، ولن يعود حينها لدول، مثل الولايات المتحدة، حجة لإقناع العالم بمحاربة الجماعات المتطرفة. ولن يكون ممكناً طمأنة مخاوف دول الشرق الأوسط من الحلف الإيراني الروسي الذي يريد السيطرة التامة على العراق وسوريا ويهدد أمنها ومصالحها.⁽²⁹⁾

لقد استغل الإيرانيون رغبة الجانب الأميركي الجامحة طوال السنتين الماضيتين في مفاوضات البرنامج النووي بالتمدد في المنطقة وتوسيع الفوضى والحروب. حتى لا تفقد المفاوضات حرصت الإدارة في واشنطن على عدم مواجهة طهران، أو حتى انتقادها، وهي ترسل قوات لأول مرة خارج حدودها للقتال في هذين البلدين! ولو أن الصراع في سوريا بقي سورياً سورياً، لكانت الأمور قد حسمت منذ فترة طويلة، إما بتراجع نظام الأسد عن عناده والقبول بالحل السياسي، كما تصوره اتفاق جنيف الأول، أو بانهيار ما تبقى من النظام العليل الذي يمثل أقلية صغيرة من السوريين، وتشكيل نظام سياسي جامع لمكونات سوريا.⁽³⁰⁾

(29) أنا بورشفسكايا، في سوريا، بوتين يخاطر تكرار خطأ الاتحاد السوفيتي في أفغانستان، موقع معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 15 سبتمبر 2015:

<http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/in-syria-putin-risks-repeating-the-soviets-union-afghanistan-mistake>

(30) عبد الرحمن الراشد، التدخل الروسي في سوريا، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، 22 أكتوبر 2015.

إنما بدخول القوات الروسية في الحرب السورية ستدخل المنطقة فصلاً أوسع من الصراع، حيث إن التطور الأخطر في التدخل الروسي يتمثل في استباحة المنطقة العربية من جديد من جانب القوى العظمى، فلا نعلم حتى هذه اللحظة ما ستكون عليه حسابات واشنطن المستقبلية، وما إذا كانت ستقف موقف المتفرج من بعث الدور الروسي في المنطقة، أم ستتقاسم النفوذ معها، أو تترك موسكو تدخل في مستنقع أزمات الشرق الأوسط لإنهاكها. وما دور القوى الإقليمية غير العربية في حسابات القوى العظمى تجاه المنطقة العربية؟ هذا يقودنا إلى سؤال منطقي وهو: ما مصير المنطقة في ظل هذه التطورات؟ فالدول العربية تعاني من عدد كبير من المشاكل السياسية والأمنية، أصبح بموجبها النظام الإقليمي - العربي منهكاً وغير قادر على صون الأمن القومي العربي إزاء التحديات الإقليمية والدولية الجمة التي تجابهه. وفي ظل ظهور متغيرات جديدة على المشهد السياسي الإقليمي والمتمثلة بتداعيات الثورات العربية والإرهاب والتأزم المذهبي والطائفي والفراغ السياسي والأمني الواضح في مناطق عدة من الوطن العربي، فإن مستقبل المنطقة العربية يبدو على أحسن تقدير غامضاً وغير مطمئن.⁽³¹⁾

(31) خالد بن نايف الهبّاس، تداعيات التدخل الروسي في سورية على المشهد الإقليمي، جريدة الحياة اللندنية، 8 أكتوبر 2015.